مبدأ الكرامة الانسانية في البيوايتيقا

مداسي مريم

تحت إشراف ا.د عبد الله موسى

مخبر " تطوير للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية " جامعة د.مولاي الطاهر – سعيدة

لا شك أننا نعيش عصرا مليئا بالتقنيات ومن أبرز مقومات التقدم العلمي هو بروزه وبشكل جلي في المجال البيولوجي أو تقدم علوم الحياة ، بصورة خاصة ودقيقة وذلك ليس من دواعي الصدفة بل يعتبر أساس في هذا العصر الجديد ، وقد شهد هذا العصر العديد من الإنجازات في جل الميادين ، أبرزها المجال البيولوجي وتقدم التقنية فيه بشكل كبيرا جدا ، وهذا ما يمثل انتصار واضح لذكاء الإنساني نتيجة ما توصل إليه من خلال تجاربه التي عممها على جميع مجالات الحياة ، وقد لفتت هذه التكنولوجيات انتباه العديد من الجهات الخاصة والعامة في هذا الحقل العلمي ، وذلك نظرا للواقع الذي فرضته هذه الإنجازات المتقدمة والتي حققتها في علوم الحياة من تطور تكنولوجي فائق ،في مجال الطب وعلوم الحياة وخاصة علم الوراثة نظرا لما تميز به من خصوصية ، وهذا ما أصبح يشكل تهديدا لحياة الأفراد زيادة إضافة إلي ذلك أصبح يهدد الكائن الحي عامة ، نظرا لقدرة هذه التقنية للوصول لأعلي المراتب في تجاربها وهذا اعتبار لما حققته لحد الساعة، ولذلك اتفق العديد من الأفراد علي إقامة لجان أخلاقية تضبط هذه الأفعال وتقوم بدفاع عن حقوق الأفراد وتحمي وتحفظ كرامتهم المنتهكة من خلال هذه التطبيقات ، فاقد تعددت اهتمامات هذه اللجان الأخلاقية والمواثيق الدولية التي تنص على كرامة الإنسان حيث أن مقصدها الوحيد هو ضمان استقرار الأفراد داخل محيطهم ، وهذا ما أصبح يجعل العديد من المختصين بالتنبوء العلمي على النتائج الوخيمة التي يمكن أن تحدث للكائن الحي من جراء هذه الإكتشافات في المستقبل القريب، نظرا لما آل إليه الوضع الحالي ، فقد طرحت هذه التجاوزات التي باتت تهدد مستقبل الأفراد وأجسادهم، فمن له الحق أن يتصرف في هذا الجسد ؟ و كيف يمكن لهذا الجسد أن يعيش داخل كل هذه التقنيات مع أن يحافظ على كرامته ؟ كيف يمكننا أن نبرهن هذا الانفجار الفلسفي داخل هذا الحقل العلمي ؟ وما هو الدور الذي يجب أن تؤديه هذه اللجان الأخلاقية والمواثيق الدولية لتضمن كرامة الأفراد ؟

انفجار فلسفي داخل حقل علمي :

لقد تغير مفهوم الأخلاق في العصر الراهن نتيجة التقنية والتقدم العلمي ، وأصبح مرهونا بتلك التقنيات العلمية يعني أنه داخل ايطار واسع وشامل هو العلم نظرا لما يحمله من تعددية ، وإن مساهمات الفكر الأخلاقي الجديد في هذه التوعية للأخلاق كان بمثابة محاولة من تحسين أفعال الأشخاص داخل هذا الإطارالبيومركزي، والذي يعتبر مفتوح أمام العديد من المختصين في جميع نواحي العلوم ،فقد أصبح فيلسوف الأخلاق مطالبا اليم أكثر من أي وقت مضي بأن يدلوا بدلوه في لجان الأخلاق التي شكلت في أنحاء العالم العربي[1] .

وهذا ما يثبت لنا أن الأخلاق بعد ما كانت في الفلسفات القديمة تبحث عما يجب أن يكون ، اليوم ومع بروز العديد من العلوم تغير بحثها حسب الظروف التي أصبحت تعيشها ، وأصبح دورها كبير ومهم لكونه يبحث في المستقبل أو ما ينبغي أن يكون ، وذلك من تحسين وإرشاد للأفعال الإنسانية داخل هذه المجتمعات وأصبحت تعطي لها أولوية كبيرة وذلك بغية إقحامها في جميع التخصصات المختلفة منها المجال الطبي والتكنولوجي والتقني وغيرها .

من الأخلاق إلي البيوطيقا

مما ولدته لنا الممارسات الطبية الحديثة في عصر العلم والتقنية ، هو العديد من التساؤلات المنطقية حول القيمة الأخلاقية للتقنيات الطبية، وهذا ما جعلهم يحكمون الحق في مدافعتهم عن المسؤوليات التي وجدوها علي عاتقهم من جراء المشكلات الاجتماعية التي تصدر عن هذه الإنجازات الطبية التي تحاول أن تقحم الفرد داخل بؤرة تجارب تأخذهبهإليأعلىالمراتب،ولذلكحاولواالبحثعن قواعد أخلاقيةتضبطهذهالممارساتالتطبيقيةفيالعديدمنالمجالاتأهمهاالقانونفيحقالإنسانفيالعيشبكرامة .

وأول من استعمل مصطلح البيوطيقا لأول مرة هو الطبيب **راسيلو بوتو** في كتابه البيولوجيا جسر المستقبل سنة 1971[2] ، حيث سي الأخلاق الكلاسيكية أو القديمة بثوب جديد وراهن ، لكونه أدخلها في دائرة المعارف القانونية وأصبحت الأخلاق ترتبط بمجموعة تلك القيم التي تحكم العقل في وصولها لنتائج التقنوا علمية ، مزدوجة بالأخلاق العملية ، إلا أنها كانت دائما تساهم وبشكل فعال في تقنين هذه الأخلاقيات وضبط مسيرة عملها داخل اطار محدد ، بغية أبعادها عن التجاوزات الغير قانونية والتي تجردها في نفس الوقت من ممارسة حقها .

مفهوم الأخلاق:ethics أي فلسفة الأخلاق أو علم الأخلاق أو الأخلاقيات كما اعتمدها العديد من المنظرين الأخلاقيين ، وهي تلك الأخلاقيات التي تعتني بالجانب النظري ، ومن أجل المزيد من التحديد اقتضي السياق والتمييز بينها وبين الخلق العام moralityنقول إن الأخلاقيات ethics تنطوي تحت لواء سؤال أو نظرية القيمة الأكسيولجيا ، وتعد بمنزلة الأصل في الفلسفة العملية شبهها العديد من الفلاسفة بثمرة الفلسفة ، لكونها جانب تطبيقي فعال وواقعا معاشا وقد علا في الآونة الأخيرة الإهتمام المتنامي بما يسمي بالفلسفة التطبيقية[3].

إذن الأخلاقيون يهتمون بدراسة معايير السلوك وهي جملة المبادئ التي يستطيع الفرد من خلالها أن يميز بين ما هو خير له ولإنسانيته ، وبين ما هو شر ، وجميع هذه المعايير

يمكن أن تكون ثابتة وتلزم الأفراد على إتباعها لتحقيق المساواة بين الأفراد مع المحافظة علي الأفراد وعدم إلحاق أي ضرر كان بهم ، إذن هي تضبط سلوك الأفراد وكان هذا ما آمل إليه العديد من الفلاسفة منذ القديم باستعمالاتهم الواسعة لتحقيق كل هذه الغايات وكان لكل فيلسوف إسهامه الخاص بهذا المجال [4] ، وعلم الأخلاق بدوره يبحث في الغاية القصوى التي تتوجه إلينا يعني الخير الأسمى.

تاريخ البيوايتيقا

لقد استعمل لفظ ethique منذ سنوات الثمانينات، وهي مشتق من اللفظ الإغريقي ethosالذي يعني بسلوك واللفظ bioethique نفسه بالإنجليزية bioethics ثم استعمله 1970[5].

وقد ظهرت هذه البيوايتيقا نتيجة العديد من التصرفات التي قمعت حرية الأفراد وأصبحت تعيق مسؤولياتهم وحياتهم داخل المجتمع إلي أن ما زاد من تأزم ذلك الوضع هو تلك الدعاوي لقضائية التي حاولت أن تبين تجاوزات النازيين عام 1945 ، وتلك الانتهاكات التي حدثت في حقهم ، فقد ورد قانون نورمبارغnuremlerg، الذي نص على حماية الأفراد والمحافضة علي كرامتهم وسوف نعود لاحقا إلي المواثيق العالمية التي أقرت ذلك .

الجسد من التصور الفلسفي الي التصور العلمي :

يعد الجسد من أهم المعطيات التي تنطوي تحتها مفاهيم ذو خصوصية إنسانية لكونه معطي لوجود إنساني ، يختص بجانب أساسي في تكوين هذا الجسد (العقل والنفس أو الروح) ، فقد أصبح موضوع الجسد متشعبا بالنسبة لدراسات التي يتناولها سواء كانت فلسفية أو طبية وحتي انتربولوجية وغيرها ، وقبل أن نستنطق هذا الجسد ونبحث في غاياته الايتيقية وما يصبوا إليه يجب أن نحدد اصطلاحه الفلسفي والمعجمي، فابن منظور في لسان العرب يعرف الجسد " **الجسد هو جسم الانسان ، ولا يقال لغيره من الأجسام المتغذية ، ولا يقال لغير الانسان جسد من خلق الأرض**[6] " إذا فالجسد له خاصية إنسانية لا يمكن أت نجمع في ذلك بين المخلوقات لأنها تحوي أجساما لا أجسادا ، لأن الجسم هو عبارة عن مجموعة من الأبدان والأعضاء يشترك فيها جميع أنواع المخلوقات.

ففي الوقت الراهن لقد أصبح هذا الجسد يطرح العديد من الأفاق الابستيمية داخل قوالب إيتيقية بدعاوي علمية فلسفية ، وإذا أرجعنا التفكير الفلسفي إلي وقت سابق نجد أن التفكير في الجسد كان يأخذ جانب متعالي ومنا نجد فيلسوف نيتشه " يقول إن تاريخ الفكر البشري هو تاريخ إذلال للجسد وإماتة الرغبات والتضحية بالذات "[7]، وعلى الرغم من المحاولات العديدة التي شهدها التفكير البشري بصفة عامة والفكر الفلسفي بصفة خاصة نجد أن العقل الانساني وبمجرد خضوعه لما يسمي الجانب تكنولوجي في شتي نواحي الحياة ، نجد أن هذا الجسد سرعان ما أصبح من أحد المرتكزات البيوتكنولوجية ، وهذا ما جعل من الفلاسفة الغربيين يعيدون صياغة المفاهيم الخاصة بهذا الجسد .

وإذا رجعنا للقاموس الأجنبي نجد أن كلمة « GORPS باللغة الفرنسية تقابل كلمة الجسد، وهو اسم مذكر مشتق من الكلمة اللاتينية GORPUS وتعني الجزء المادي للكائن الحي ولاسيما من وجهة نظر التشريح والشكل الخارجي مثل هذا الحيوان له جسد طولاني كما تعني الجزء المادي للشخص ولاسيما من وجهة نظر الوظيفة الداخلية مثل (يشتكي من آلام في جسده) »[8]

كما يختلف مفهوم الجسد من حيث الموضوع ، فموضوع الجسد يختلف بحسب المواضع التي يستعمل فيها ففي مجال العلوم الإنسانية له خصوصية وفي مجال علوم الطب والأحياء وغيرها فكل مجال يحمل موضوع لهذا الجسد بحسب طبيعته التي تستدعي أن يخوض فيه، فهذا الوضع يحيلنا إلي الوضع الحالي الذي يعيشه هذا الجسد داخل المراكز التقنية والطبية ، فكلما تطور العلم وازدهر سوف يكون الجسد البشري مصحوبا به ، يعني يتماشى معه، لكون هذه التقنية سوف تغير في الجسد سلبا أو ايجابا، كما يقول ماركيوز " التقنية عندما تغدو الشكل الكوني للإنتاج ، فإنها تحدد معالم ثقافة بأكملها وترسم مشروع كلية تاريخية إنها ترسم مشروع عالم " [9] هذا ما يدل على أن التقنية هي التي أصبحت تشكل هذا الجسد الذي أصبح عرضت لها في تطبيقاتها الطبية وحتى التكنولوجية .

مبدأ إحترام الكرامة الانسانية :

تعتبر الأسسالقيميةوالانسانيةالتينشأتعليهاالأممطيلتقرونسابقة،أسس عالمية تتصف بالكونية لما تحمله من معاني إنسانية فقد أصبحت بعض هذه الأسس تقلقنامن جراء التقنيات التي برزت واصبحت تهددها على المستوي العالمي ، خاصةإذاتعلقالأمربالمساسبالعنصرالبشري (الجسد) وهذاماجعلمنالفلسفاتالمعاصرةأنتعيدالنظرفيالمفاهيمالخاصةبالإنسان،والقيمالانسانية،فقدأصبحتتطرحبشكلمختلفعماكانتعليهفيالسابقكمفهومال كرامةالانسانيةوالاحترامواالاحسانكلهامفاهيمذاتدلالاتايتيقيةتطرحهاالمجالالبيوايتيقيداخلحقلهاالعلميالفلسفيالذييحاولأنيطرحمنخلالهبعضالتقنياتالتي هيبدورهاتأملفيأنترسخهذهالمفاهيمأوأنتقومبدورفعالتجاههذاالانسان،فالموتالرحيموزراعةالأعضاءالبشرية ...

وغيرهامنالتقنياتأصبحتتطرحللانسانالمعاصرمشكلاايتيقيفيالبحثعنحلولوماامدي حفاظها

علىكرامتهواحترامه،وفيهذاالسياقظهرتالعديدمنالمواثيقالدوليةوالتيتؤسسلمبدأاحترامالكرامةالانسانيةفيأنحاءالعالمفكيفيمكنناأننؤسسلمبدأالكرامةالان سانيةفيظلالتقنياتالطبيةالمعاصرة؟وماهيخصوصيتها الايتيقية التي تطرحهاهذه التقنيات؟

مفهوم الكرامة الانسانية :

الكرامة الإنسانية هي مفهوم ايتيقي يأخذ العديد من الأشكال الفلسفية في مضامينه لكونه لا يأخذ طابع واحد ، يعني لا يمكننا أن نحصر هذا المفهوم في تعريف واحد لما له من خصوصية وولوجه داخل العديد من المحاور الفلسفية وخاصة اننا نحاول أن نأخذ بهذا المفهوم لمجاله البيو ايتيقي وخاصة من الناحية العلمية التقنية التي أصبحت مثل هذه المفاهيم مهددة داخل الحقل التجريبي العلمي.

فيعرفها فيلسوف الكرامة كما يسميه العديد من الفلاسفة ايمانويل كانط " الكرامة إنها القيمة التي تورث الشخص الإنساني الحق في التمتع بمعاملة تجعل منه غاية بذاته ، لا مجرد وسيلة لغيره " [10] فما حاول أن يؤسس له كانط هو أن مبدأ الاعتراف بأن لكل شخص كرامة فريدة ولا يمكن أن نساومها بأي ثمن لأن ليس لها قيمة محددة ، بل كرامة الانسان غير محدودة ولذلك لا يمكن استبدالها بشئ آخر مساو لها في القيمة ، فمفهوم الكرامة الانسانية يتطلب عدم إضفاء الطابع المادي على الكائن البشري وجعله أداة يمكن تداولها ، كما نجد أن طه عبد الرحمان في كتابة سؤال العمل ، يقر أن المحدثين والعلمانيين لم يوجدوا تعريف محددا للكرامة وهذا راجع لوجود بعض المفاهيم التي تتضمن مبادئ مثل مفهوم الحق ومفهوم الواجب كلها مفاهيم إنسانية ذات صبغة قيمية لذلك لم تحدد الفلسفات السابقة ولا حتي التيارات الفلسفية تعريفا محدد .

مبدأ احترام الانسان وصيانة كرامته

يوجد هناك اتفاق على وجود مفاهيم إنسانية متشابهة في مضمونها لكونها تؤدي غرض الشرعية القيمية بالأساس، فمفهوم الكرامة الإنسانية هو مفهوم معاصر بالنظر إلي تجلياته البوايتيقية داخل الحقل العلمي وخاصة عندما يتصل بالجانب الطبي لأن سؤال الموت المعاصر كما هو موجود في الفكر الغربي يطرح مسألة الكرامة خاصة وإن ارتبط بالموت الرحيم أو موت الشفقة كما تسميه بعض النصوص الغربية التي تحاول ان تجعل منه ساس لاحترام حياة هذا المريض وتقديس لحياته الميئوس منها[11]، ولذلك نجد أن مبدأ الاحترام الذي يتوافق مع الحفاظ على كرامة المريض هي مسؤولية طبية تقع على عاتق الطبيب حيث يجب عليه ان يحترم مريضه بالإضافة إلا أنه يجب عليه أن يقوم .

فهناك مشاكل أخلاقية تطرح اليوم على الساحة الفكرية متأثرتا في ذلك ببعض التقنيات البايلوجية كالموت الرحيم وزراعة الأعضاء البشرية وغيرها من المواضيع التي لها صلة بالجسد الانساني ، فما وصل إليه العلم اليوم من تأخير للموت أو وإطالة عمر الانسان وتدخل الجيني في اختيار جنين بالمواصفات التي يريدها الوالدين كلها أصبحث تهدد بحياة ومستقبل الكائن البشري لأن الواقع العلمي أصبح يدعوا للبحث عن رجل المهمات الخاصة هذا مانعني به أشخاص يصنعون لغرض ما فقط ...

الكرامة الانسانية والموت الرحيم :

يحيل مصطلح الموت الرحيم EUTHANASIE حاليا إلي التدخل الطبي الذي يسعي إلي وضع حد لحياة شخص مصاب ،وترجع جذور هذا المصطلح إلي اللغة الاغريقية EU بمعني جيد، و THANATOS بمعني الموت وبذلك يصبح معني الكلمة هو الموت الجيد أو الموت الرحيم [12]، فقد تغيرت مفاهيم الموت في الفكر الغربي وأصبح الموت اختيار بحسب الحالة المرضية التي يعاني منها الجسد العليل، وقد اعتبر العديد من الهيئات ان قتل المريض هو بمثابة شفقة أو حفاظا على كرامته وبالتالي يطالب هذا الاتجاه بتحوير التشريعات الوطنية لحماية الإطارات الطبية والممرضين من التتبعات الجنائية التي يمكن أن تنجر عنه ، فاذا دققنا النظر نجد أن المستشفيات هي التي كانت في السابق تتولي أن تحيي وان تطيل من حياة المريض الذي يعاني من أمراض عليلة ، إلا أن الإصرار على أن يكون الموت داخل المستشفي يخرجه من سياقه الطبيعي كلازمة للحياة ويجعل منه حادثة فجيئة تنتج عن عجز مؤقت للعلم أو خطأ طبي . فالمستشفي لم يكتفي بكونه ايطار للموت فقط ، بل أصبح مفهوم الموت نفسه محددا بالأجهزة والمعدات وهذا ما أدي إلي تطور علوم الإنعاش من موت القلب إلي موت الدماغ هو الذي يؤكد أن هذا قد مات [13].

القوانين والمواثيق الدولية التي تقر بمبدأ الكرامة الانسانية[14] :

تكرس بعض الدساتير الأوروبية والعربية مبدأ احترام الكرامة الانسانية فأول الدساتير نجد الدستور الايطالي 1947 الذي يقر بالكرامة الفرد الاجتماعية والمتساوية لجميع المواطنين .

أما الدستور الألماني 1949 يكرس عدم المساس بكرامة الكائن البشري وتلتزم جميع السلطات العامة على احترامها وحمايتها من اي انتهاكات مهما كانت نوع الانتهاكات .

الدستور البلجيكي يقر بموجب التعديل الذي طرأ عليه 1994 لكل شخص أن يعيش حياة مطابقة ومنسجمة مع الكرامة البشرية .

فالدستور البلغاري 1991 يجعل من حقوق الشخص وكرامته وأمنه مبدأ جوهري

بالإضافة إلي الجمعيات والمواثيق التي جاءت مناهضة لما حدث للانسان في الحروب وبعض الانتهاكات السياسية للأفراد ، فكلها جاءت مساندة للانسان وكرامته الانسانية لغرض الحفاظ عليها ، كمثل ذلك الإعلان الذي ورد في طوكيو 1975 على الباحثين قبل اجراء التجارب على البشر ان يحددوا المشروع الذي ينوون إنجازه في محضر تجريبي يعرض ، لأجل المراقبة والتوجيه على لجنة مستقلة ، هذا ما يدل على أن العديد من المواثيق الدولية وضعت على عاتقها وجوب أن تجعل من الكرامة الانسانية مبدأ أساسي من خلال المحافظة عليه والتنوية إلا أنه واجب ومطلب أخلاقي قبل كل شئ .

خلاصة :

نستنتج أن مبدا احترام الكرامة الانسانية داخل القالب البيوايتقي وحتي الأخلاقي هومن أهم المبادئ التي تقر بها المواثيق الدولية، خاصة من الناحية التطبيقية لتلك التقنيات على الجسد البشري، لذلك وجب أن نؤكد على خصوصية هذا الجسد ما ينبغي أن يتطرق له بدون أن نغيبه ، لأن تغييب الجسد يعني تغييب الفكر وهذا ما ما يجعل من الانسان مجرد آداة، وقد اخذ هذا المفهوم صدي واسع نظرا لكونه متأصل في مجال الأخلاقيات التطبيقية وفي الكائن البشري

الهوامش:

1. مصطفي النشار ،**الفلسفة التطبيقية** ، الدار المصرية ، القاهرة ، 2005، ص345
2. جاكلينروس،**الفكرالأخلاقيالمعاصر**،تر:عادلعوا،عويداتللنشروالتوزيع،ط1 ،بيروت،2001،ص110
3. ديفيد برزنيك ، **أخلاقيات العلم** ، تر:عبد النور عبد المنعم ،مر:يمني طريف خولي، عالم المعرفة ، يونيو،2005،ص9
4. جاكلين روس، **الفكر الأخلاقي المعاصر** ، مرجع سابق،ص11.
5. gilberthottois et jean noel missa .nouvelle encyclopedie de bioethique p128

6. ابن منظور ، لسان العرب ، الجزءالرابع ، ص92
7. نيتشه ، أصل الأخلاق وفصلها ، تر : حسن قبيسي ، المؤسسة الجامعية للدراسات نشر وتوزيع ، بيروت ، ط1، 1980، ص115
8. GDEL RAND dictionariesencyclopediquelarousse ; librarieslorousse ; paris ; 1982 ;volume3 ;p 2644
9. نقلا عن : سمية بيدوح ، فلسفة الجسد ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ص 12 ، 2009[1]
10. emmanuel kant,fondements de la metaphysique des mœurs , paris , vrin ,1980 ,p 105
11. guy durand , introduction generale a la bioethique ,edition fides , canada , 2005 ,P397
12. عمر بوفتاس ، البوايتيقا (الأخلاقيات الجديدة في مواجهة تجاوزات البيوتكنولوجيا) ، افريقيا الشرق ،المغرب ، 2005، ص163
13. محمد مفتاح ،قضايا طبية معاصرة على ضوء أخلاقيات مهنة الطب والأديان والقوانين الوضعية ، مركز النشر الجامعي،تونس 2013،ص121
فواز صالح ، مقالة حول مبدأ احترام الكرامة الانسانية في مجال الأخلاقيات الحيوية دراسة قانونية مقارنة ، المجلد 27 ، العدد ، دمشق ، 2011 ، ص 254